على هامش الفلسفة

مرجع الأخلاق

للأستاذ محمد يوسف موسى

تتمة البحث

وأينا في الكلمة الأخيرة أن الأستاذ العلامة ليفي برُهْل Levy-Bruhl يرى في كتابه « الأخلاق وعلم العادات La morale et la science des mœurs » أن الأخلاق ترجع أولاً إلى علم العادات الذي مرجعه استقراء التاريخ وملاحظة الحاضر، ثم يتداخل فيها النظر العقلي لتعديل ما يجب تعديله من الظواهر الأخلاقية والاجتماعية . هذا هو ملخص ما يدعو إليه . فما الرأي فيه ؟

لا ريب أن هناك فائدة كبيرة من علم العادات الذي يشير باستيحائه . لأن النظريات والأفكار الأخلاقية التي تعاقبت على الزمن هي وليدة المجتمعات ، وإذاً ليكن من الواجب دراستها أولاً بالعقل العملي الدقيق . ولكن لا ينبغي أن نستنتج من هذا أن علم العادات يختلط من الناحية العميقة بالأخلاق بحال من الأحوال

يقفنا التاريخ على أن كثيراً من أرباب الضمائر العالية عورضوا في أيامهم بآراء أخلاقية تقليدية كانت ضد مثلهم العليا ، إلا أن المستقبل كان يحكم دائماً لهم ، وإذاً تكون ضمائرهم الشخصية سبقت الضمير الاجتماعي المستقبل وأعدته لما أرادوا له ، وإذاً يكون من الممكن والواقع أن الخلقية تقوم على قتال النظريات الأخلاقية والعادات الاجتماعية التي توجد في زمنها . ها هي ذي أخلاق « بوذا » لم تكن متفقة مع عادات الهند البرهمية في القرن السادس قبل الميلاد ، كما لا تتفق الأخلاق التي جاء بها أنبياء بني إسرائيل وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام مع عادات الأمم والشعوب التي بعثوا فيها ولها .

لا يقول لنا علم العادات كيف نختار عند ما تتعارض المثل العليا للتورات الأخلاقية مع الآراء والحقائق الاجتماعية التي توجد معها ! لننظر مثلاً للحرب ، نجدها تكشف حقيقة اجتماعية لا شك فيها ؛ هي تسيطر العواطف والشاعر الحربية على جميع الشعوب ، ومع ذلك لا يرضى أحد أن يرفض مثالاً أعلى هو السلام العالمي متى وجد لذلك سبيلاً . وبعبارة أخرى إن تحقق أية حقيقة ولو اجتماعية لا يلزم المرء بالانحناء أمامها واعتبارها مبدأ أخلاقياً جديراً بالتقدير

وبعد فعلم الاجتماع وعلم العادات من العلوم التي لها قيمتها وجدواها ، ولكنهما لا يحلان محل الأخلاق التي تقدر الأعمال وتضع لها قواعد للسير عليها . الاستقراء المطبق على تجارب التاريخ يطلعنا حقيقة ما كان في الماضي وما هو كائن الآن لا ما يجب أن يكون . ذلك أن دراسة ماضي مسألة من المسائل من الوجهة التاريخية كمركز المرأة وحقوقها مثلاً مثلاً ، والوقوف على ما كان خاصاً بذلك من نظريات مما يجعل الدارس أكثر صلاحية من غيره لمعرفة ما إذا كان من الخير الاحتفاظ بالحالة الراهنة فيها أو تناولها بالتعديل قليلاً أو كثيراً ؛ لكن هذه المعلومات التاريخية والاجتماعية التي أمدتنا بها البحث لا تكفي وحدها لفرض حل حازم سواء أكان حلا محافظاً أم معدلاً أم ثائراً . هذا حق لا شبهة فيه ؛ إذ كيف يمكن تاريخياً معرفة ما يمكن أن يكون في المستقبل ! أكبر دروس الماضي أنه مضى لطيته ، وأن الحاضر يجب أن يتبعه أيضاً . والأخلاق لا يكفيها هذا بل تسعى كما قلنا لمعرفة ما يجب أن يكون .

وأخيراً ، إذا كنا لم نرتض نظرية من النظريات السابقة التي تواردت بشأن الطريقة التي تتبع لتعرف القانون والمثل الأعلى الأخلاق ، فما هو إذاً الحل الذي نرضاه ؟ هذا الحل هو ختام هذا البحث الذي قد طال وقوفنا عنده

التجربة الأخلاقية[1]

ليست الحياة الأخلاقية إلا مجموع أعمال نفسية واجتماعية خاصة ، فمن الممكن أن نقول بتطبيق الطريقة الاستقرائية عليها ، ولكن على نحو آخر غير الذي رآه الأستاذ « ليفي برُهْل » . والعقل العلمي لا يتطلب منا أن نلتزم في كل موضوعات البحث طريقة واحدة ، إذ يتطلب فقط أن يلائم المرء بين موضوع البحث وطريقته ، وأن يعنى الأخلاق بأن يقارب بالقدر الممكن بين

(١) من المراجع الهامة في هذا :

١ — التجربة الأخلاقية L'Expérience morale Raub

٢ — دراسات الأخلاق Etudes de morale

الطريقة التي ينتهجها في الأخلاق والطريقة التي يستخدمها العالم في العلوم التجريبية ؛ أي أن يصدر عن تجارب واسعة وصدر رحب وروح غير متحيزة لا تدع للخطأ سبيلاً. هكذا عالج العلامة «روه Rauh» موضوع طريقة الأخلاق في مؤلفيه القيمين ، وهما : « التجربة الأخلاقية ، ودراسات الأخلاق »

يرى هذا البحاثة أن العالم يقبل كبداً لبحثه اكتشافات أسلافه وآراءهم كفروض على الأقل يأخذ في بحثها وتمحيصها بكل ما يملك من وسائل . كذلك الأخلاق يجب أن يبدأ بحثه من التقاليد فيمحصها ويزنها بما تمده به تجاربه الخاصة والحقائق الدينية التي لا ريب فيها والضمير القادر على الحكم الصحيح . بعض هذه الأفكار التقليدية توسع من قلوبنا وعقولنا ، وتبث فينا يقيناً شريفاً وسعادة نبيلة ، ونحن بعد تمحيصها لا يسعنا أن نضعها موضع الشك ، كما لا يشك العالم في فروض علمها وظهر له صحتها

حقاً يجب السير مما اتفق عليه الأديان ثم من التقاليد ؛ فالحياة تولد من الحياة ، حياتنا الأخلاقية لم نبتدعها بل جاءتنا من حياة أسلافنا الأخلاقية إلى حدّ ما ، فمن الادعاء والعبث الذي لا معنى له أن يهمل باحث كل تجارب الإنسانية الأخلاقية . ومن الغباء أن يزعم أحد قدرته وحده على أن ينشىء أخلاقاً ، كما ليس في مكنة أحد أن يبني وحده علم الهندسة أو الطبيعة مثلاً .

لكن حذار أن تقتصر على تقاليد البيئة الأسرية أو القومية الخاصة . يجب أن يعنى الباحث الأخلاقي بتقاليد الأمة كلها فيجتهد في تعرف أصولها في زواياها الماضي البعيد والقريب وآثارها في الحاضر ؛ ومن ثم يكون لعلم التاريخ فائدته وخطره وخاصة تاريخ الفلسفة والأديان. على أنه ليس للمرء أن يحدد نفسه باستشارة الكتاب ؛ عليه أن يخالط — مصغياً مستطلعاً باحثاً — المساجد والكنائس وسائر دور الدين بلا تمييز ، وألا ينسى المجتمعات المختلفة للأوساط الاجتماعية ، بعد هذا يجب أن يبحث ويقارن ويحقق ما جمعه بهذه الوسائل من الآراء والنظريات الأخلاقية المختلفة وأن يستخلص منها ما يكون متماثلاً ومشتركاً ، ويختار من بينها الأصلح حينما تتعارض حسب تجاربه وضميره وفكره المنزه عن الهوى

من رسائل الغير

أبصرت اليوم من نافذة برجي « شهر يوليو » مقبلاً يخطو سريعة وهو متدثر برداء أحمر كأنه قطع اللهب ، وقد تسبب من حينه العرق ، وهو يقرع باب برجي ويصيح :

— أيها النافل عن جسمه ، القابع بين جدران سجنه. انطلق قليلاً إلى نسيم البحار وهواء الجبال ، وأرح نفسك واستروح من نفسك !

فسمع الجواب من أعماق نفسي :

— وكيف يستريح من هذه النفس وهي تحتفظ وجوده امتطاه ؟

— أو تذعن لهذا الفارس القاسي حتى يسحق المطية سحقاً ؟!

فقالت النفس « لشهر يوليو » :

— أهي رحمة منك بالمطية أم أنك تريد أن تأخذها مني لنفسك أيها الشهر اللعين !

— إنها ستجد عندي الراحة والنسيم . وسأقدم لها « علفاً » من فاكهة الجبال الغضة وزهر الغابات الجميل ونسيم صيني العليل . . . أما أنت فماذا تجد عندك ؟ إنك لن تقدمي إلى هذه المطية النحيلة غير « علف » من الحبر والورق والسهاد المضني والعمل المرهق والتفكير الطويل !

— سأعطيها النور الذي يضيء لها السبيل !

— لا تخدعيها بهذه الكلمات . ومع ذلك فإن عينيها في حاجة كذلك إلى الراحة والبعد عن النور . أقصي عن وجهها شهراً واحداً ذلك المصباح الذي لزمها طول الشهور !

— إنها لا تستطيع السير خطوة بغير ذلك المصباح

— أعلم لك أن الزيت قد نفد من هذا المصباح . دعيني أذهب بها إلى حيث تملؤه من جديد زيتاً خالصاً نقياً ، يرسل الضوء وهاجاً قوياً ، لها وللآخرين من القراء والمريدين ، طول عامها القادم . . . آمين !

ترفيه الكيلاني

بعد هذا أيضاً يجب ألا يكتفى بتقاليد أمته وجنسه ، بل يكون واسع الأفق عالي البحث حتى يصل إلى مبادىء يمكن الحكم بصلاحيتها للجميع . والسياحة بما تهيئ لنا من فرصة تعرف تقاليد الأمم والشعوب المختلفة الدينية والاجتماعية فى مواطنها الخاصة يمكن أن تمدنا بهذا البحث الأخلاق الواسع الدقيق بمبادىء أخلاقية عامة لها قيمتها وخطرها . من أجل هذا يقول أحد الكتاب الإنجليز — بعد ما ساح كثيراً بين أوربا وأمريكا وأقام أخيراً باليابان — مادمنا معاشر الأوربيين لم نعش إلا فى نصف الكرة ، فليس لنا إلا أنصاف أفكار وآراء[1] » .

وإذاً لكي نصل إلى مبادىء وأحكام صحيحة ، يجب أن نسائل هذا وذاك ، لا شخص بحثنا بأمة دون أمة ولا بجنس دون جنس ، ولا بعصر دون عصر . يجب أن نجمع شهادات كل الضمائر التى لها قيمتها ، وأن نبحث لنفهم نفسية الأفاضل والأبطال والحكماء ثم نعمل التحقيق غير المتميز فى كل هذا المجموع من الآراء الأخلاقية لنعد بذلك العقيدة الأخلاقية غير المفروضة على طريقة « المروحة » حسب تعبير « روه ـ Rauh » نفسه ، وإذاً يكون القانون والمثال الأعلى الأخلاق هو نقطة الانتهاء لطرق متعددة متنوعة .

هذه هى الطريقة الحية المنتجة التى أرى أنه باتباعها نصل إلى تقرير حقائق أخلاقية صالحة لكل العقول ، وإلى تعرف المثل الأعلى الأخلاق الذى يقبل من كل الضمائر المستقيمة والإرادات الطيبة فى كل البيئات والعصور .

إلى هنا انتهيت مما أردت بحثه ، ولم يبق إلا أن أتوجه بالشكر لله تعالى ، وإلى حضرة الأستاذ الجليل صاحب « الرسالة » ، وحضرات القراء الذين تفضلوا بتشجيعى على جهد المقل برسائلهم وكلماتهم الطيبة . وأخص حضرة الباحث الجليل الأستاذ نصيف المنقبادى الذى لا أجدنى أهلاً للثناء الذى وجهه إلى بعدد « الرسالة » القراء رقم ٣٠٣ فى ابتداء الكلمة القيمة التى بحث فيها غريزة الخير والشر من الناحية البيولوجية أى من ناحية أصلها ونشأتها وتطورها وذلك غير الناحية التى حاولت بحثها .

وإلى اللقاء بعد العودة من فرنسا إن شاء الله تعالى فى أول العام الدراسي الآتى .

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

(١) Challaye : Philosophie scientifique et phl. morale
شالي : الفلسفة العلمية والفلسفة الأخلاقية

د . هـ . لورنس

الأستاذ عبد الحميد حمدى

مقدمة

أمل ويأس : فى هاتين الكلمتين يتلخص تاريخ القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين . كانت تقوم الحركة تلو الحركة ، وفى كل مرة ينبعث الأمل ويظن الناس أن الحياة قد بعثت من جديد وأنهم صاروا قاب قوسين أو أدنى من السعادة الإنسانية ، ولكن سرعان ما تذوى الحركة وتموت ، فيتحول الأمل يأساً ، وينقلب النعيم بؤساً ، وتحل الحسرة محل السرور ، ويأخذ الألم مكان اللذة ، وبذلك تتم الحياة وتظلم أكثر من ذى قبل حتى لا تبشر بعد ذلك بخير

فى مستهل القرن التاسع عشر قامت الحركة الصناعية ، فهلل الناس وكبروا استفاقوا كأنهم من كابوس مريع . ولكن لم تلبث هذه الحركة أن خلفت أضعاف ما كان موجوداً من بؤس وشقاء ، فازدحمت المدن حتى ضاقت بسكانها وتوزعت الثروة ولكن توزيعاً غير عادل ؛ فكان من جراء ذلك أن مال الناس عن هذه الحركة وتعلقوا بأهداب حركة أخرى ناشئة هى الحركة العلمية التى قامت نتيجة للمستكشفات العلمية والمخترعات الحديثة ؛ فأمل الناس فيها واستبشروا بها حتى صدمتهم الحقيقة المرة وتبينوا أن العلم قد يعطى الإنسان قوة فوق قوة ولكنه لا يهبه السعادة ولا الهناء

وعلى أثر يأس الناس من هذه الحركة ناصروا الحركة السياسية التى قامت تحت زعامة جلادستون أملاً فى أن الدعوة إلى الحرية وإلغاء الفوارق بين الطبقات والتخلص من امتيازات الطبقة العليا هى سبيل السعادة المنشودة . ولكن ما كاد عميد الحركة يقضى حتى قضت الحركة إلى جواره ، ثم أتت هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية فكانت ضغثاً على إبالة وكانت الضربة القاضية للحركة لأن فرنسا كانت نصيرة الحرية ورمزاً لها فى ذلك الوقت

وبهذه الطريقة يلقى الإنسان باليأس المرة بعد المرة حتى تنضب معين أمله ، وزال عنه تفاؤله ، وصار لا ينظر إلى الحياة إلا بمنظار أسود ، بعد أن تبين له أنه إنما يحارب عدواً لا قبل له به ، وأنه قد كتبت عليه الهزيمة مهما قاتل ومهما استبسل . لذلك رأى